(٥) قوله ولا شيء يعجزه

➢ **قال بعد ذلك: (ولا شيء يعجزه)** إي والله **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } [فاطر: ٤٤]** سبحانه وبحمده ربنا لم يزل ولا يزال ولن يزال على كل شيء قدير **{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران: ١٦٥]** ، فالله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يلحقه من ذلك تعب ولا إعياء كما قال سبحانه وتعالى: **{وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: ٢٥٥]** وقال: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]**، أي من تعبٍ وإعياء، فالله تعالى لا يعجزه شيء. ما ضد العجز؟ القدرة، والقوة ما ضدها؟ الضعف.

إذاً: لابد أن نميز بين الوصفين –عندنا لفظ القوة والقدرة– القدرة: هي التمكن من الفعل من غير عجز، والقوة: هي التمكن من الفعل من غير ضعف وكلاهما –أي العجز والضعف– منفيٌ عن الله، وكلاهما –أي القوة والقدرة– مثبتٌ لله على أكمل ما يكون.

إذاً: (لاشيء يعجزه) ومرةً أخرى نقول: لا شيء نكرة في سياق النفي فتدل على العموم، فهذا يحتاج أن نملأ قلوبنا منه أن الله سبحانه وتعالى لا شيء يعجزه، ثق تمام الثقة أن الله على كل شيء قدير وأن أي أمرٍ خطر ببالك فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على ذلك حينما يقع الإنسان في همٍ أو غمٍ أو مرضٍ أو فاقة أحياناً يغيب عنه هذا المعنى والله سبحانه وتعالى يقول: **{ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام: ١٧]**، املأ قلبك بهذا يا عبد الله، هذا تمام التوحيد أن تعتقد بقدرة الله التامة حينما ترى هؤلاء الطغاة يعيثون في الأرض فساداً ويهلكون الحرث والنسل ويقتلون الأبرياء ويحرقون ويدمرون، ربما يتسلل إلى بعض نفوس المؤمنين شك في قدرة الله عز وجل بسبب الذهول وبسبب تتابع الأشياء، لكن الله على كل شيء قدير **{ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ } [محمد: ٤]**، لكن الله حكيم في قدره كما هو حكيمٌ في شرعه.

ولا بد لنا أن نعلم أن كل ما نفاه الله تعالى عن نفسه فهو صفة نقص، فإذا نفى الله عن نفسه العجز **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ } [فاطر: ٤٤]** فهو نقص، وأن الواجب علينا أن ننفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم لكن لا يكفي، لابد أن نضيف إلى ذلك إثبات كمال ضده، تأملوا هذا المعنى: **في مقام النفي يجب علينا أن ننفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم، إذ أن ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه نبيه فهو قطعاً صفة نقص لكن ذلك لا يكفي بل لابد أن نضم إليه إثبات كمال**

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

ضده؛ فإذا نفينا عنه العجز أثبتنا له كمال القدرة لأن النفي المجرد لا يدل على كمال إلا إذا تضمن إثبات الضد، وهذا أمرٌ حتى عند الناس، أنت مثلاً حينما تقول لصاحبك: حاشاك لست ببخيل ماذا تقصد؟ أنه كريم، لا تقصد أنك لست بكريم ولست ببخيل ما يكون مدحه إلا إذا ضمنت قولك هذا إثبات كمال الضد، أو إذا قلت له: حاشاك أنت لست بجبان تريد بذلك: أنك شجاع، ولو فهم أنك تنفي عنه الجبن لكن لا تثبت له الشجاعة لعدها منقصة ولم تطب نفسه بذلك، هذا تأملوه عند الناس فكيف في جناب الرب –سبحانه وتعالى –وذلك لأن النفي المجرد على اسمه نفي، والنفي لا يدل على كمال على حد ذاته حتى يتضمن إثبات الضد، ثم إن النفي المجرد ربما يكون بسبب نقص كأن يكون لعدم القابلية، بأن يقول قائل: أصلاً هو لا يتصف بذلك يعني: لو قال قائل الله تعالى لا يعجزه شيء فربما قال أحدٌ من القرامطة بأن العجز والقدرة ليست أصلاً من الصفات، فنحن نقطع عليه الطريق ونقول: نثبت كمال الضد لله عز وجل.

يعني ينظر ذلك بقول القائل مثلاً: هذه الطاولة لا تظلم لو قلت لكم هذه الطاولة أنعم وأكرم لقلتم لي الظلم والعدل ليست من صفات الطاولات وصدقتم في ذلك فإنه لا يضاف إليها هذا، فقد يدعي أحد أن ما نفيناه عن الله عز وجل ناتجٌ عن عدم القابلية لذلك نضمنه إثبات كمال الضد لنقطع عليه هذه الدعوى الباطلة وقد يكون النفي المجرد بسبب العجز، أحياناً قد يقول قائل: نعم أنتم نفيتم عن الله الظلم ولكن أحياناً يكون الظلم بسبب العجز كما قال القائل يهجو قبيلة:

قبيلةٌ لا يغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردل

يبدو لأول وهلة أنه يمدحهم نفى عنهم الغدر ونفى عنهم الظلم لكن الواقع أنه كان يذمهم؛ يعني أنه كان يقول أنهم بلغوا من الضعف والمهانة لدرجة أنهم لا يجرؤون على الغدر ولا يستطيعون الظلم وذلك بسبب ضعفهم (قبيّلة) ولهذا حقرهم وقال:

قبيلةٌ لا يغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردل

فكان ذلك ناتجاً عن ضعفهم وإنما يكون مدحه لو كانوا قادرين على الظلم قادرين على الغدر لكنهم ربأوا بأنفسهم عن ذلك لكانت في ذلك مدحه فنحن حينما نقول عن ربنا: **{ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [فصلت: ٤٦]** و **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ } [فاطر: ٤٤]** و **{وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨] {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥]** إلى غير ذلك من النفي؛ فإن ذلك مقرون بإثبات كمال ضده فهو سبحانه وتعالى قال: **{وما مسنا من لغوب}**[ق/٣٨] لكن له كمال القوة، **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ } [فاطر: ٤٤]** لكن له كمال القدرة، **{ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [فصلت: ٤٦]** وله كمال العدل، **{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}**

[البقرة: ٢٥٥] له كمال الحياة والقيومية، فينتبه لهذا المعنى.

واعلموا أيضاً أن طريقة القرآن هي النفي المجمل والإثبات المفصل، فمن تأمل في آي الكتاب وجد أن الله سبحانه وتعالى يتعرف إلى خلقه بالصفات الثبوتيةِ المفصلة، ويكتفي بنفي صفات العيب والنقص ومماثلة المخلوقين بجملٍ عامة هذا واضح لمن قرأ القران، تجد في القرآن ترسد **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الحشر: ٢٣، ٢٤]** تفصيل في الإثبات يعدد الله تعالى أسماءه الحسنى لأن الإثبات به مزيد علم ثم إذا جاء إلى النفي قال: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] و **{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]** ونحو ذلك، فيكون إثباتاً مفصلاً ونفيٌ مجملاً.

العجيب! أن المتكلمين قلبوا الأمر وعكسوا الآية فصاروا إذا عرفوا بالله عرفوا بالنفي المفصل والإثبات المجمل فتجد في مقدمات كتبهم إذا تكلموا عن الله عز وجل ليس بكذا وليس بكذا وليس بكذا ليس بجسم ولا شبهٍ ولا جثةٍ وليس له سماخٌ ولا حذقةٌ ولا يوصف بالعين ولا يوصف بالكيف ولا ولا ولا...، وسلسلة من اللاآءات التي يعرفون بها الله عز وجل، هكذا عكسوا الآية: صاروا يفصلون في النفي وفي الإثبات يتكلمون بكلامٍ مجمل فهذا من شؤم طريقتهم.

وإنما وجد نفيٌ مفصل في القرآن العظيم لأسباب: إما بسبب شبهة واقعةٍ أو متوقعة، أو بسبب توهم أمر من الأمور فمثلاً حين قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } [ق: ٣٨]** نفى الله تعالى عن نفسه التعب والإعياء لأنه قد يتوهم متوهم أن هذا الخلق العظيم هذه السماوات والأرض خلقها يستدعي أو يوجب تعباً فلذلك بادر إلى النفي، أو بسبب شبهةٍ واقعة مثل قول الله تعالى: { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: ٣] لأنه قد كان فاشياً في الناس من كتابيين ومشركين أن الله تعالى له الولد، فالنصارى يقولون: المسيح ابن الله، واليهود يقولون: عزيرٌ ابن الله، والعرب تقول: الملائكة بنات الله، فلما كان الأمر كذلك احتاج إلى نفيٍ مفصل وإلا فالأصل الإثبات المفصل والنفي المجمل.

➢ **قال: (ولا إله غيره):**

هذه هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله، و(لا) نافية، و(إله) إسم (لا) النافية للجنس وتحتاج إلى خبر وقد اختلف في تقدير ذلك الخبر (لا إله إلا الله) ما خبرها، فذهب بعض النحاة إلى أن التقدير لا إله موجود أو غير ذلك من التقديرات، والصحيح أن التقدير الذي يجب الصيرورة إليه هو: لا إله حقٌ إلا الله، ولما قلنا ذلك؟ لأن ثَمَّ آلهةٌ تعبد غير الله، فلا يصلح أن نقول لا إله موجود يوجد هناك آلهة تعبد من دون الله **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}**

[الفرقان: ٣] **{أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} [يوسف: ٣٩، ٤٠]**، **إذاً**: يوجد آلهة فليست هي لنفي الوجود بل الآلهة موجودة، ولكن هي موجودة ومعبوده بغير حق، فلهذا نقول: ولا إله غيره أي: لا إله حق إلا الله، وهذه كلمة التوحيد التي سبقت الإشارة إليها وبيان معاني التوحيد.

➢ **ثم إن الشيخ –رحمه الله– قال: (قديم بلا ابتداء دائمٌ بلا انتهاء)**

هكذا عبر –رحمه الله– (قديمٌ بلا ابتداء) والقديم ليس من أسماء الله الحسنى ويغني عنه اسمه الأول فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :"اللهم **أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الأخر فليس بعدك شيء**"، فهذا خيرٌ من قول المؤلف: قديم ودائم (قديم بلا ابتداء دائمٌ بلا انتهاء) وهو أراد هنا السجع، ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى هو الأول فليس قبله شيء، ولفظ القديم وإن استعمله بعض العلماء تنزلاً ومجاراةً لغيرهم في التعبير به، إلا أنه ليس من الأسماء الحسنى؛ لأن الأسماء الحسنى هي التي بلغت في الحسن غايتة، ولكن ربما جاز الإخبار به، وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء والصفات.

لما لم يكن القديم من الأسماء الحسنى؟ لأن القديم مسبوق بما هو أقدم منه ألم تر إلى أن الله تعالى قد قال: **{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ } [يس: ٣٩]** وكونه قديماً لا يمنع ما هو أقدم منه فلذلك كان هذا اللفظ قاصراً ويغني عنه وأبلغ منه اسم الله الأول فهو الأول سبحانه ليس قبله شيء كذلك (دائمٌ بلا انتهاء): فإن اسمه (الآخر) قد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "**وأنت الآخر فليس بعدك شيء**" ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفني جميع خلقه كما قال تعالى: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن: ٢٦، ٢٧]** ووضح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في السنة فقال: "**يطوي الله السماوات بيمينه ويقبض الأراضين ويقول أنا الملك أنا الجبار، أين الملوك؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ فلا يجيبه أحد، فينادي لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب الجبار نفسه {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]**" فهو الدائم سبحانه وتعالى بلا انتهاء.

➢ **قال: (لا يفنى ولا يَبيد)**

نفى الشيخ عن الله عز وجل صفتي: الفناء، والبيد وهما بمعنىً واحد معناهما متقاربان فهو سبحانه لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يفنى سبحانه كالمخلوقات ويلحقها البيد، بل هو سبحانه الباقي المستغني عما سواه.

➢ **(ولا يكون إلا مايريد)**

هذه الكلمة من الكلمات المتعلقة بباب القدر في الواقع، والمقصود بقوله: (ولا يكون إلا ما يريد) أحد

نوعي الإرادة وهي الإرادة الكونية، وذلك أن إرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية.

الإرادة الكونية: هي الإرادة القدرية، **والإرادة الشرعية:** هي الإرادة الدينية، وبينهما فرق من لم يتنبه له التبس عليه الأمر وآل إلى أحد فرقتي الضلال: إما إلى الجبرية، وإما إلى القدرية؛ وأما من ميز بينهما فقد استبان له الحق.

فلو أردنا أن نجري مقارنة بين النوعين نقول:

١. **الإرادة الكونية معناها:** المشيئة، **والإرادة الشرعية معناها:** المحبة.

٢. **الإرادة الكونية** لابد من وقوعها، **والإرادة الشرعية** قد تقع وقد لا تقع.

٣. **الإرادة الكونية** قد يحبها الله ويرضاها وقد لا يحبها الله ولا يرضاها **أما الإرادة الشرعية** قطعاً يحبها الله ويرضاها.

٤. **الفرق الرابع: الإرادة الكونية** قد تكون مقصودة لذاتها وقد تكون مقصودة لغيرها، **وأما الإرادة الشرعية** فإنها مقصودة لذاتها.

نعود على هذه الفروق الأربعة بشيء من التفصيل:

- الفرق الأول: الإرادة الكونية معناها المشيئة قال الله تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]** فلهذا لم يزل أهل السنة والجماعة يقولون: ما يشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن كل شيء يشاؤه الله لابد أن يقع فالإرادة الكونية معناها المشيئة ، الشرعية معناها المحبة **{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة: ١٨٥]** " يعني يحب الله لكم اليسر ولم يقل يشاء الله لأنه لو قال يشاء لآمن الناس كلهم جميعاً لكن من آمن حظي باليسر ومن كفر أو عصى لحقه العسر.
- الفرق الثاني: الإرادة الكونية لابد من وقوعها كما أسلفنا **{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠]** فلا بد من وقوعها اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

أما الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣]**وقد لا يصَلي ولا يزَكي، {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [الحديد: ٧] وقد يكفر بهما إذاً هذه إرادةٌ شرعية لم يلزم وقوعها.

- الفرق الثالث: أن الإرادة الكونية قد تكون فيما يحبه الله ويرضاه كإرادة الله كوناً إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقد تكون فيما لا يحبه سبحانه كخلق إبليس، ووجود المعاصي ووجود السموم والحيات والعقارب والأمراض والشرور والزلازل والبراكين فقد تتعلق الإرادة الكونية بما يحبه الله ويرضاه وقد تتعلق الإرادة الكونية بما

يحبه الله ويرضاه وقد تتعلق بما لا يحبه الله ولا يرضاه، أما الإرادة الشرعية فقطعاً تتعلق بمحبوباته فكل ما أراده الله شرعاً فإنه محبوبٌ له.

- الفرق الرابع: وأخيراً وهو يفسر ما سبق الإرادة الكونية قد تكون مرادة لذاتها كإنزال الكتب وإرسال الرسل، وقد تكون مرادة لمآلاتها لا لذاتها، لكن إلى ما تؤول إليه كخلق إبليس، ووجود المصائب والألآم والكفر والعصيان وغير ذلك، فهذه ليست مقصوده لذاتها ولكن لما يترتب عليها من مصالح فإنه لا يتمايز المؤمنون من الكفار ولا الأبرار من الفجار ولا أهل الجنة من أهل النار ولا تظهر معاني أسماء الله الحسنى إلا بهذا التنوع فبهذا يعبد الله ويعرف، أما الإرادة الشرعية فإنها دوماً مرادة لذاتها.

ونختم: أن من لم يفرق بين هاتين الإرادتين، فنظر إلى أن الإرادة لا تكون إلا إرادة شرعية آل إلى قول القدرية، ومن نظر إلى أن الإرادة لا تكون إلا إرادة كونية قال بقول الجبرية، وهذا ما سيأتي تفصيله لاحقاً -إن شاء الله-.

ثم إنا نقول إن الإرادتين تجتمعان في حق المؤمن المطيع وهذا سر سعادته، وتفترقان في حق الكافر الفاجر وهذا سر شقائه.

تأملوا معي المؤمن خاضع لإرادة الله الكونية لأنه أحد مخلوقات الله تعالى لا محيد له عما أراد الله كونه فهو مؤمن خاضع لإرادة الله الكونية ثم هو مستجيب لإرادة الله الشرعية طواعيةً من تلقاء نفسه فلهذا تلتقي الإرادتان في حقه فيتصالح مع نفسه ويكون سعيداً ما عنده تعارض ولا اضطراب.

أما الفاجر أو الكافر فإنه خاضعٌ رغم أنفه لإرادة الله الكونية لكنه مصادمٌ لإرادة الله الشرعية بعصيانه لربه فتتعارض الإرادتان في حقه فهذا سر شقائه، فكلما كان العبد أتقى لربه كان أطيب عيشاً وأهنى، والعكس بالعكس فمن كان أبعد عن ربه كان أشقى كما قال ربنا عز وجل **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٤]**

وصلى الله على نبينا محمد ..